العرب والبحث عن المستقبل

بقلم/ عبد المعطي أبو زيد
رئيس التحرير

وسط الاضطرابات التي تضرب استقرار عدد من البلدان العربية وتهدد وجودها كدولة، وتهدد وحدة أرضها وشعبها، يبدو الحديث عن أهمية البحث العلمي كأحد المتطلبات الأساسية لبناء المستقبل العربي نوعاً من الترف.

رغم ذلك، فإن البحث العلمي مطلب ملح ومطلوب في كل الظروف والأحوال، بل إن الكثير من المشكلات التي واجهت وتواجه البلدان العربية هي بسبب غياب المنهج العلمي في العمل وفي التفكير، فانتشار الفقر والأمية ونقص الوعي وتراجع أداء الفرد والمجتمع يعود في أحد أسبابه إلى غياب العلم والبحث العلمي في حياة الشعوب العربية سواء في الاقتصاد والسياسة والمجتمع والظواهر الإنسانية؛ أو في مجال العلوم الطبيعية والتطبيقية في الهندسة والطب والزراعة والصناعة والفنون وغيرها.

فقد أصبح البحث العلمي أحد ضرورات الحياة في الحاضر، والبناء للمستقبل، لأن التطور العلمي في كل مجالات الحياة أصبح سريعاً ومتلاحقاً، ولم يعد يكفي فيه النقل عن الآخر أو ملاحقة الجديد في كل مجالات العمل والإنتاج.

إن أجيال المنتجات وتكنولوجيا الإنتاج أصبحت تقاس بسنوات قليلة وربما أقل من ذلك بعد أن كان التغيير يتطلب عشرات السنين للانتقال من جيل إلى جيل للمنتج الواحد.

في الوقت نفسه، أصبح امتلاك القدرات البحثية أمراً يتعلق بمفهوم الاستقلال الحقيقي للدولة، «فالتبعية العلمية» هي أحد أخطر أشكال التبعية في العالم الحاضر، في كل المجالات بدءاً من الأمن القومي إلى طرق التدريس والتعليم إلى الانتاج والزراعة والاكتفاء الذاتي من المحاصيل والسلع.

لذلك فإن افتقار العالم العربي لقواعد راسخة للبحث العلمي هو أحد أسباب الضعف العربي العام أمام الآخرين أعداء ومنافسين وأصدقاء على حد سواء.. ولعل

ما حدث في العدوان الاسرائيلي على لبنان أحدث نماذج قدرات العلم على اختصار المعارك والمسافات وحسم الصراع بأبسط الحيل والأدوات.

وفي الوقت الذي لا يملك فيه (٥٠٠) مليون عربي أية براءات اختراع ذات قيمة على مدى عشرات السنين، فإن دولاً صغيرة تملك الالاف من براءات الاختراع والابتكار في مجالات البحث العلمي التي تحولت إلى مصادر للثروة والقيمة المضافة للشعب فلا أحد يقدم ثمرة وجهد أبنائه وعلمائه مجاناً للآخرين، بل إن ما يستطيع العرب شراءه من الابتكارات والتكنولوجيا يحرص منتجوه على أن يبيعهم أجيالاً تتخلف كثيراً عما هو بالدول المتقدمة.

لقد مر العالم بمراحل من حيث موارد قوة الدولة، بدأت بامتلاك الموارد الطبيعية والثروات الأساسية كمصدر رئيسي للقوة والثروة، ثم تحولت إلى راس المال في القرن الماضي، وصولاً إلى امتلاك عناصر الانتاج بما في ذلك الموارد البشرية، وصولاً اليوم إلى أن امتلاك البحث العلمي المتقدم بإمكانه أن يعوض نقص الموارد وحتى نقص البشر الذى أصبح قياس اهميتهم بالكيف وليس بالكم.

إن طريق العرب نحو التقدم يعتمد على عدة عناصر لا شك فيها، بدءاً من تطوير التعليم إلى المنهج النقدي والقدرة على الابتكار وليس مناهج التقليد والاتباع.. ثم تشجيع البحث العلمي وترسيخ المنهج العلمي في التعامل مع كل شئوننا وقضايانا، وهو أمر ممكن بالتعاون العربي المشترك وتبادل الخبرات وتوفير الامكانات للبحث العلمي الذي لم يعد رفاهية.. بل أصبح من ضرورات الحياة اليوم وغداً .. وليس فقط من أجل التقدم.

من هذا المنطلق جاء تخصيص «آفاق عربية» ملف هذا العدد لدراسات متميزة عن البحث العلمي، قام بها خبراء وعلماء متخصصون في مجالات عديدة.

٢٠٢٤/١٢/٩